

\*Mouldi Lahmar | مولدي الأحمر

## فهم الثورات: بدايات تونسية

*Understanding Revolutions: Opening Acts in Tunisia*

عنوان الكتاب: فهم الثورات: بدايات تونسية.

عنوان الكتاب في لغته: *Understanding Revolutions: Opening Acts in Tunisia*

المؤلف: عزمي بشارة .Azmi Bishara

الناشر: إنجلترا: أي بي توريس I.B. Tauris

سنة النشر: 2021

عدد الصفحات: 328 صفحة.

---

\* أستاذ علم الاجتماع والأنثروبولوجيا في معهد الدوحة للدراسات العليا.

Professor of Sociology and Anthropology at the Doha Institute for Graduate Studies.

Email: [mouldi.lahmar@dohainstitute.edu.qa](mailto:mouldi.lahmar@dohainstitute.edu.qa)

## مقدمة: حقل معرفي جديد

خلال العشرينية الأولى من انطلاق ما أصبح يعرف بـ"الربيع العربي"، صدرت آلاف المقالات والكتب والتحقيقات وصفت أحداث هذه الظاهرة وحلّتها وناقشتها، ونظم بشأنها عدد هائل من الندوات والمؤتمرات العلمية عبر العالم، كما خُصّص لها وقت معتبر من اللقاءات السياسية على المستويين الإقليمي والدولي. وبذلك تحول الربيع العربي إلى حقل بحثي جديد تتجند له مراكز البحث، وتُخُصّص له مقررات تعليمية في الجامعات، وتُعدّ في مجاله أطروحت بحث أكاديمية، وتشغل به اليوم، بصفة مباشرة وغير مباشرة، جماعة علمية دولية في اتساع مستمرّ، تعود جذورها إلى فترة موجات التحول الديمقراطي التي عرفتها أوروبا الشرقية بداية من منتصف القرن الماضي وقبلها أميركا اللاتينية.

يأتي كتاب عزمي بشارة في هذا السياق السياسي والمعرفي المركب، ليضع إحدى اللبنات الأساس المساهمة على نحو جدي في مناقشة هذه الجماعة العلمية بشأن الحالة العربية. وبذلك فإن هذا الكتاب لا يمكن أن يقرأ إلا ضمن هذا السياق المعرفي النقدي الطويل النفس، الذي استدعى في مجادلاته ونقاشاته كل تاريخ أدبيات الثورة والاصلاحات السياسية بمختلف أنواعها في الشرق والغرب.

### 1. الإمبريقية

يمكن القول إن المؤلف كان محظوظاً إلى حد معقول في ما يخص توافر المعلومات عن الثورة التونسية، التي لم يجر الانقلاب عليها مبكراً لتکمم الأفواه أو تُدجن، ولم تَحد عن مسارها السلمي لتدخل في دمار الحروب الأهلية التي انفجرت في بعض بلدان الربيع العربي، جاعلة الكتابة فيها شبه ترف بالنسبة إلى ضحاياها. وهي ثورة لم تنزلع في بيئه مسطحة فكريأً ومؤسسائياً رغم الاستبداد السياسي الذي جثم على نفوس أهلها. كما أن

على مستوى الهندسة الداخلية للكتاب، وزع المؤلف بحثه - الترتيب هنا من عندي - على خمسة فصول ومقدمة وخاتمة، تناول فيها - معتمداً على الكتاب الذي نشره في الموضوع نفسه باللغة العربية سنة 2012<sup>(1)</sup> - يوميات الثورة أي مادتها وأزمنتها قبل الأحداث وخلالها - ما هو تونسي فيها

(1) عزمي بشارة، الثورة التونسية المجيدة: بنية ثورة وصبرورتها من خلال يومياتها (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012).

أما الجهة الأخرى فلا أعرف عنها شيئاً<sup>(2)</sup>. وضع هذا الجواب أولئك القوم في ورطة، فالأخذ بكل شهادة جحا لا يُفيدهم في تقفي أثر الجمل، ومن ثم في حسم قرار موافقة تقفي أثره من عدمه. أما الالتفاء بالجزء الأول من الجواب فهو مفيد فقط في حالة أضافوا إليه تعليماً احتمالياً. تلك هي معضلة النظرية التجريبية التي تظل دائمة في حالة اختبار كلّما غادرت الحالة الإمبريالية المخصوصة في اتجاه أشمل. وفي الخلفية المنهجية لسير بشاره على هذا الخط الرفيع هناك حضور لهذا الهاجس.

لكن معضلة النظرية ليست فقط في مُشكل التعميم، بل في الرداء الكيف الذي تُسلّه على "الواقع"، وما تُستجه ب شأنه من "قناعات معرفية" تختبئ في ثنيا المفاهيم والفرضيات والسياق الإبستيمولوجي - الاجتماعي المُمْتَجِّ لها. عندها يمكن النظرية أن تتحول إلى ما يُطلق عليه البعض كلمة "سردية". وفي الواقع لا تتحول النظرية إلى سردية بالمعنى الذي يريد له أ أصحاب التيار "التأويلي الروائي" - إن صحّ الوصف - إلا عندما تغادر طابعها النقيدي الاحتمالي وتتصبّع أداة سلطة و فعل و/أو أداة إنتاج و"أنسنة" لباحثين يطلبون الانتقام إلى جماعات تُحقّق لهم منافعهم ويتجدون للدفاع عنها. أما على المستوى المعرفي النقدي، فإن إشكالية "الرداء الرمزي" الذي تُلقى النظرية على "الواقع" تأخذ بعدها آخر، يتلخص في حظوظ الباحث في أن يتحرر من ذلك "الرداء الرمزي" الذهني ليعيد علاقته الخاصة بـ"الواقع التجريبي"؛ ما يسمح له بالنظر إليه بأسئلة وهواجس جديدة، ذات علاقة بالسياق الإبستيمولوجي - الاجتماعي الذي يُمارس فيه - هو بحد ذاته - عملية التفكير. من هذه الزاوية فقط نفهم سبب تخصيص بشاره صفحات طويلة،

النخب السياسية - على ترهلها الجيلي والضعف التنظيمي لغالبيتها - لم تكن غارقة فكرياً ومعيارياً في بنية مجتمع محافظ، يجرُّ المتنمّين إليه إلى معارك جماعوية أفقية، فالمجتمع التونسي لم يعرف في العصر الحديث صراعات إثنية أو مذهبية هدّدت وحدته. سمحت هذه البيئة الاجتماعية بوفرة نسبية للمعلومات والكتابات الأكاديمية والدراسات الميدانية والمذكرات والموافق، وهي مفيدة للباحث العلمي بسبب تنوعها والحرية الفكرية التي كُتبت بها، انطلاقاً من قناعاتهم الأيديولوجية أو من موقعها مستقلة. وهذا ما استفاد منه بشاره فجاء كتابه حافلاً بالمعلومات التفصيلية التي استقاها من كم هائل من المصادر، وأعطى مساره التحليلي سنداً إمبريقياً قوياً. لكن المعلومات الإمبريالية لا تصنع بشكل تلقائي كُلّاً، مهما كانت هذه المعلومات غزيرة ومتعددة، لأن فجوات الالامعـون بين "الواقع" أوسع بكثير من تلك التي تعطيها المعلومات التي هي في حد ذاتها إشكالية. سُنرى أن المؤلف كان واعياً بهذا التحدّي وحافظ على "ربطته" من كل تعميم.

## 2. النظرية

إذا كانت المعلومات الإمبريالية - التي هي انتقائية وجزئية واصطناعية (بمعنى مُنتَجـة) كما يقول ماكس فيبر - لا تُصنـع وحدـها كـلـاً مـفهـومـاً، فإن المـخـاطـرة بالنظـرـية تـصـبـحـ هيـ الـحـلـ، ولـكـهـ لاـ يـكـونـ إـلـاـ حلـاـ إـشـكـالـيـاـ بـسـبـبـ مـعـضـلـةـ التـعـمـيمـ. ولـكـيـ نـفـهـمـ إـمـبرـيـقـيـاـ، إـنـ صـحـ التـعـبـيرـ، هـذـهـ مـعـضـلـةـ أـسـوـقـ النـكـتـةـ - الأـحـجـيـةـ التـالـيـةـ عنـ جـحاـ، كـنـتـ أـسـتـخـدـمـهاـ بـيـدـاغـوـجـيـاـ لـمـنـاقـشـةـ طـلـبـتـيـ فـيـ المـوـضـوـعـ؛ـ كـانـ جـحاـ جـالـسـاـ يـوـمـاـ تـحـتـ شـجـرـةـ إـلـىـ جـانـبـ الطـرـيقـ،ـ فـمـرـّـ بـهـ قـوـمـ تـوقـفـواـ أـمـامـهـ وـسـأـلـوـهـ:ـ يـاـ جـحاـ هـلـ مـرـّـ منـ أـمـامـكـ الـيـوـمـ جـمـلـ أـسـوـدـ؟ـ إـنـاـ نـقـتـفـيـ أـثـرـهـ!ـ فـأـجـابـهـمـ:ـ نـعـمـ لـقـدـ مـرـّـ بـيـ جـمـلـ،ـ الـجـهـةـ الـمـقـابـلـةـ لـيـ سـوـدـاءـ،ـ وـنـحـنـ صـغـارـ مـساـوـيـ الـكـذـبـ!

(2) كانت أمي تستخدم هذه النكتة - الأحجية كي تشرح لنا ونحن صغـارـ مـساـوـيـ الـكـذـبـ!

عن العلاقة الدفينة والمتصلة بين المعرفة والسلطة ونماذج التفكير الأيديولوجية، بما تتحمّه من مواقف في الغالب من وراء ظهر الباحثين. ومن ناحية أخرى، في موازاة لذلك، زعمت المدرسة التأويلية عن طريق كليفورد غيرتز وغيره بأن النظريات ليست إلّا سردّيات شبه ذاتية، يمكن أن تُنْتَج منها العشرات بصيغ مختلفة لا تشترط العلمية بمفهومها الوضعي.

مع ذلك ما زال هناك مدافعون عن الموضوعية في العلوم الاجتماعية رغم ما يحمله المفهوم من غموض، وقد حاول بير بورديو حل المشكل، ولو نسبياً، عن طريق مقترن المعرفة الانعكاسية بغایة التمسك بإمكانية إنتاج المعرفة ومرامكتها. وانطلاقاً من الخلفية النظرية والمنهجية لكتاب بشارة، يمكن القول إن المؤلف ما زال يتّمّي إلى هذا المعسّكر في وجه تيارات السردّيات والسبّاج على السجال، ولذلك أفرد الصفحات الأخيرة من كتابه، في قسم خاص، للتعبير عن موقفه الشخصي من المسار الذي تسير فيه الثورة التونسية اعتماداً على ما توصل إليه من نتائج تحليلية، ومن ثمّ فهو في وضعية إدراكية تشبه تلك التي لخصها رامون أرون في كتابه الشاهد الملزّم.

## ثانياً: معضلات "سردّيات" الثورات

### 1. مشكل الأدبّيات: ما الثورة؟

في أدبيات الثورات هناك مشكلان أساسيان واجهها الباحث بمجرد فتحه هذا الملف<sup>(3)</sup>:

(3) واجهنا سنة 2011-2012 هذا المشكل بكل ثقله خلال إنجاز دراستنا الميدانية عن الثورة التونسية في مناطق انتفافها، وقد بينا أن أحداث الثورة التونسية تُشبه في بدايتها الثورة الفرنسية، وأن السردية "الرسمية" للثورة الفرنسية أيديولوجية ولا تطاق الواقع، مستشهدين في ذلك بما كتبه عنها إريك هوبرباوم، يُنظر: مولدي الأحمر [وآخرون]، الثورة التونسية: القاجح المحلي تحت مجهر العلوم الإنسانية (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014)، مقدمة الكتاب.

في مقدمة الكتاب وفي التمهيد الذي وضعه له، لمناقشة - تقريباً - كل أدبيات الثورات التي جرت في العالم من منظور فوائدتها في فهم الثورة التونسية تحديداً و"الربيع العربي" عموماً، وهذا هو الخطير الرفيع الثاني الذي كان يسير عليه المؤلّف بحذر.

### 3. الالتزام

هل يمكن التفكير بشكل عام - وفي موضوع الثورة تحديداً - من دون التزام معياري أو سياسي؟ هذه المعضلة قديمة دشّنها في العصر الحديث ريني ديكارت حينما زعم أن كل شيء مشكوك في وجوده إلّا الذات العارفة التي لها وجود أصلي مستقل. فالعلوم الاجتماعية أعطت المقاربة الوضعية زخماً لفكرة إمكانية فصل الذات عن الموضوع، بل دعت إلى ضرورة القيام بذلك من أجل إنتاج معرفة "صحيحة". وقد تجند للمشروع كبار مؤسسي هذه العلوم في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين (أوغوست كونت، وهاربرت سبنسر، وإميل دوركايم، وماكس فيبر وغيرهم) والنقاش في الموضوع لا يزال مستمراً، فمن العلوم التي ترفع اليوم لواءه عالياً "سيكلولوجيا الأعصاب". لكن الأطروحة التي واجهت هذه المعضلة رأساً وبلا مواربة، كانت أطروحة فيبر في موضوع ذي علاقة مباشرة بمضمون كتاب بشارة: أطروحة "العالم والسياسي" التي زعم فيها بأنه ما دام أن ما يقود العالم في غايته هو الوصول إلى الحقيقة، وأن ما يقود السياسي هو تغيير العالم بكل ما يتضمنه ذلك من انحراف في مجالـي المنافع والقيم، فإنـ كلـيـهما يـسـيرـ فيـ طـرـيقـ مـخـلـفـ منـ الصـعبـ أـنـ يـلـتـقيـاـ.

هذا ما واجهـهـ بشـارةـ فيـ كـتابـهـ، حتىـ إنـ لمـ يـعلـنـ عنـ ذلكـ صـراـحةـ. لكنـ هلـ ماـ زـالـ طـرـحـ فيـبرـ قـائـماـ؟ـ منـذـ كـارـلـ مـارـكـسـ ومـدـرـسـةـ فـرانـكـفورـتـ، مـرـورـاـ بـمـيـشـالـ فـوكـوـ وـحتـىـ طـرـوحـاتـ بـرـينـوـ لـاتـورـ الـيـومـ، تمـ الكـشـفـ

هذه الثورات لا تناسب مع السردية التي أُلقت بشأنها؛ فهي في أحاديثها الأولى لم تكن تختلف كثيراً عن بدايات أحداث "الربيع العربي"، وعن الثورة التونسية تحديداً. ويجب أن يُحسب للمؤلف تتبعه الدقيق لهذه المسألة، خاصة حينما وضع إصبعه على التشابه بين ما أشعلته الثورة الفرنسية في أوروبا من رغبة في التغيير الثوري لأنظمتها الاستبدادية المتخلفة (مقارنة بالإنجاز الفرنسي)، وما أشعلته الثورة التونسية في العالم العربي من رغبة في الاقتداء بها. وأنه واع بفخاخ الإمبريقية فقد حذر من أن التشابه الشكلي لا يُحيل بالضرورة إلى التشابه في المضمون. فعلى سبيل المثال: في حين انتشرت الثورة الفرنسية في أوروبا جزئياً بفضل حروب نابوليون، انتشرت الثورة التونسية كالهشيم في النار في كثير من البلدان العربية بسبب توافر ما سماه في كتاب آخر له القابلية للثورة، التي وإن توافرت في السياق نفسه في أوروبا القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فإن سياقها العربي كان مخيال الانتماء إلى ثقافة عامة واحدة والاعتقاد في إمكانية إنجاز مستقبل مشترك تحت راية موحدة، أكثر من مطلب الحرية ذاته. والخلاصة التي وصل إليها المؤلف هي أن التفكير في "الربيع العربي" بمرجعية المخيال السريدي الغربي للثورة قد يجعلنا لا نفهم الثورة التونسية.

هل هناك نظرية في الثورة؟ هنا تعود معضلة الإمبريقي. لذلك للإجابة عن هذا السؤال، يَفحِّص المؤلف عشرات المؤلفات التي ناقشت مفهوم الثورة، وحاولت أن تبني لها نموذجاً نظرياً يمكن أن يحضر مختلف تقاطعات الحالات التجريبية التاريخية في متغيرات بعينها، تسمح للباحث بأن يُصنّف الحالة موضوع المشاهدة على أنها ثورة إذا ما اجتمعت فيها هذه المتغيرات. لكن النتيجة كانت محطة لسبعين على الأقل:

الأول: يتعلق بالثورات بوصفها سردية أيديولوجية، وهذه تكون دائمًا حصيلة عمل سياسي وإعلامي وأدبي - فلسطفي طويل النفس، تُنجزه قوى اجتماعية تنجح في فرض "روايتها" التاريخية للأحداث على أوسع نطاق، وتستخدم في إعادة إنتاجها أدوات شتى أهمها الأجهزة الأيديولوجية للدولة وخاصة المدرسة. وعندما تستقر السردية في الأذهان والأشياء تُصبح تمثلاً أيديولوجياً صلباً للتاريخ، يستغل مثل الهابتوس بمفهوم بورديو، فيوجه الذات الجماعية في تمثيلها لذاتها وللآخر. وعندما تتجدد هذه القوى في أن تكون مهيمنة على نطاق عالمي، تغزو سرديتها أذهان المهيمن عليهم فتحتحول عند هؤلاء إلى نموذج مرجعي يُحيطون إليه واقعهم الخاص لفهمه وتقديره، إلى الحد الذي يعجزون فيه، أحياناً، عن تمثيل عالمهم في صورة مختلفة عن تلك التي يُولّدها النموذج المرجعي في أذهانهم.

الثاني: يتعلق بالثورات، بوصفها موضوعاً للتفكير الأكاديمي النقدي، وهنا يجد الباحث نفسه يتعامل مع نظريات معرفية هدفها المعلن الوصول إلى "الحقيقة"، وهذا يُحتمّ عليه الوعي بتأثير السياق التاريخي الاجتماعي والمعرفي في عملية بناء تلك "الحقيقة" (إبستيمولوجيا المعرفة).

في كتابه *فهم الثورات* واجه بشارة هذا المشكل المزدوج بكل وضوح. ففي المخيال الثوري العالمي، نماذج قليلة من الثورات يمكن اعتبارها كذلك: الثورة الفرنسية، والثورة البلشفية، وإذا تكرّم "الناطقون الافتراضيون" العالميون بمخيال الثورات الكبرى يمكن أن يقبلوا بالثورة الإيرانية نموذجاً، ولكن بكثير من التحفظ والرّيبة. سؤال المؤلف كان: أيّخبرنا ما نعرفه من سردية عن الثورات بما جرى خلالها في الواقع، أم هو فقط عملية أيديولوجية تركيبية أُنتجت "بعد الحدث"؟ هنا يعتمد بشارة على المؤرخين المحترفين لُبّين أن الكثير من وقائع

أهم التحولات التي نسبتها إلى نفسها كانت بقصد التشكيل والتأسيس قبل الثورة عن طريق الإصلاحات السياسية الجارية آنذاك. ويجادل بشارة العديد من المؤلفين المشهورين في موضوع مفهوم الثورة؛ سكوبكول، تلي، بورك، بارنغتون مور، غولدستون، وكثيراً غيرهم (ص 7-14). بل يذهب في نقهه لنظريات الثورة حد التشكيك في وظيفية مقترح هنا أرندت، رغم الاتفاق معها من ناحية المبدأ، التي تحصر الشرط الأساس، لاعتبار أحاديث سياسية ما بأنها تمثل ثورة "تحقيقية"، في مقوله الحرية. ذلك أن أرندت اعتماداً على هذه المقوله ترى أن أميركا أنجزت ثورة عظيمة؛ لأن موضوعها كان الحرية في شتي معانيها، ناسية أن هذه الثورة أعدمت حرية السكان الأصلانيين في القارة بأن مارست عليهم سياسة إبادة جماعية! (ص 13).

ما الشورة إِذَا؟ يحاول المؤلف بحذر تقديم تعريف، يمكن اعتباره إجراتيًّا أكثر من أن يكون نظريًّا، يساعد في رأيه على تمييز الشورة من الاحتجاجات المحدودة في الزمان والمطلب، ومن الحركات الإصلاحية السياسية الفوقيَّة التي لا تستهدف تغيير النظام، ومن الانقلابات العسكريَّة (مع بعض التحفظ عن التجارب الناجحة مثل ما حدث في البرتغال). وبذلك تكون الشورة من منظور المؤلف حركة شعبية واسعة، تنشأ خارج الحدود الدستورية المعتمدة أو الشرعية الساريَّة بهدف تغيير النظام المتحكم في الدولة، حتى وإن لم تقدِّها كتلة سياسية مُوحَّدة (ص XIV). لكنه يُضيف أيضًا، بتفاعل مع تيموتي آش، أن بين الثورات والإصلاح علاقة وطيدة، فالإصلاحات الحقيقية تولد بالتراكم، والثورة لا تتجزَّ ذاتها إلا بوسيلة الإصلاحات.

## 2. في حالة التهوية

بمجرد الاستغلال على حالة بعينها تستعيد مشاكل الإماميقي كل وهجها، ومنها ديناميكية تطور

السبب الأول هو أن الوصف الإمبريقي لحالة ما لا يُنتج نظرية تتمتع بقدرة كشفية عالية. والمثال النموذجي على ذلك كرين برايتون في محاولته تشخيص العناصر المفصلية للثورة الفرنسية<sup>(4)</sup>. صحيح أن هناك الكثير من العناصر التي ذكرها برايتون تتكرر في كثير من الحالات، مثل وضعية الإفلاس العام للدولة، وتصدّع النخب الحاكمة وغير ذلك، لكن السياقات المختلفة للثورات لا تجعل هذه العناصر تجتمع بالطريقة نفسها في كل حالة، وتأخذ المعنى نفسه في أذهان المعنيين بها، بل أنها قد لا تتكرر في أي حالة مختلفة، ومع ذلك تحدث الثورة. فالثورة التونسية لم تسلط على خلفية أزمة مالية حادة للدولة عجزت خلالها عن مواصلة القيام بوظائفها الأساسية، بل يمكن حتى القول إن النخبة الحاكمة لم تصدع بل بقيت محايضة وربما كانت عاجزة عن استخدام أجهزة الدولة إلى جانبها.

يتعلّق السبب الثاني بعدم تركيز المفهوم على المبدأ الأسas الذي تقوم عليه جميع الثورات في كل زمان ومكان؛ وهو طابعها الإصلاحي، مهمماً كانت مجريات تحقّقها؛ سواء كانت سياسة تأتي من فوق تقدّمها قوى معنية بتغيير البنى والقيم، أو جاءت من تحت بدفع من المحروميين الباحثين عن العدل، وسواء كانت سلمية هادئة وطويلة النفس، أم عنيفة سريعة تعكس انسداد أفق التفاوض والتواافق السياسي. ومن هذا المنظور يستدعي المؤلّف فكرة اللكسيس دي توكييل<sup>(5)</sup> الذي كان يزعم، بصفته محافظاً، بأن الثورة العنيفة لسنة 1789 لم تكن ضرورية قياساً على ما أنجزته لاحقاً؛ لأن

(4) Crane Brinton, *The Anatomy of Revolution* (New York: Vintage, 1965).

(5) Alexis de Tocqueville, *The Ancient Regime and the Revolution*, Jon Elster (ed.), Arthur Goldhammer (trans.) (Cambridge/ New York: Cambridge University Press, 2011).

التنظيمات على توجهاته (ص 18). وعند بلوغ هذا المستوى من التحليل يدخل بشارفة في تفاصيل الثورة وأحداثها، مُقِيمًا مقارنات بينها وبين الثورة المصرية، خاصة فيما يتعلق بتاريخ التحديث الاجتماعي الثقافي في البلدين، وخصائص المجتمع المدني وال منتخب الفكرية والسياسية، وأصول الدولة الحديثة وعلاقتها بالجيش، وأخيراً بالموقع الاستراتيجي لكلا البلدين وثقله بالنسبة إلى علاقة القوى الدولية بالمنطقة.

بطبيعة الحال، كما يقر المؤلف، لا يمكن دراسة الثورة التونسية والمصرية وفهمهما خارج برديم الانتقال الديمقراطي، الذي تفترض مقولته الأساسية أن مآل مثل هذه التحولات الكبرى هو بناء الديمقراطية. لكن الديمقراطية لا ينبغي أن تكون مجرد أيديولوجيا، فالالأصل فيها هو أنها بديل من الاستبداد وليس أداة لإعادة إحياء أسسه. ولذلك يلاحظ بشارفة أن هناك غموضاً يحوم حول مفهوم الديمقراطية بصفتها نظاماً سياسياً عند القوى العلمانية والقوى الدينية التي تصدرت أحداث "الربيع العربي". فالعلمانيون يتكلمون عن دولة مدنية يفهمونها ضد القوى الدينية، في حين تستخدم القوى الدينية مفهوم الدولة المدنية ضد نموذج الدولة العسكرية، بينما الأصل هو بناء نظام ديمقراطي يقبل به الجميع ويحددون مواقفهم بعضهم من بعض بناءً على المبدأ الديمقراطي الذي لا يمكنه أن يكون إقصائياً، وقد اعتمد بوصفه ضد الاستبداد والقصاء.

### **ثالثاً: في المعرفة غير المحايدة**

ليس الهدف من هذا التقديم عرض كل أفكار المؤلف في تفاصيلها وفي تعرجات مسارها التفكري الخصب، بل هو تحفيزٌ على قراءة الكتاب ومناقشته على نحو جدي يناسب الجدية التي تعامل بها المؤلف مع الظاهرة ومع أدبيات

الأحداث وتعرجات مسارها، وصعوبات بناء الجديد وما ينتجه عن ذلك أحياناً من ارتدادات ضدّ الوعي بالثورة ذاتها وبأهدافها، وكل ذلك يربك كيفية الاشتغال بالمفاهيم المستخدمة. هل يمكن اعتبار ما جرى في تونس ثورة؟ هنا يلاحظ المؤلف - قد يكون بمحضه من قصيدة أبي القاسم الشابي - بأن الثورة تحدث عندما يتوقف الناس عن النظر إلى واقع الظلم الذي يعيشونه على أنه "طبيعي" فيأخذوا على عاتقهم التخلص من وهم القدرية (ص 2). وبالفعل كان نشيد الثورة التونسية "إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر". وبطبيعة الحال ليس هذا الشرط كافياً لتنطلق شارة الثورة بحظوظ وافرة للاستمرار حتى بلوغ الهدف وهو "إسقاط النظام"؛ إذ أن هناك شروطاً بنوية أخرى لا بدّ من توافرها، من أهمها تشكيُّل قطبين متعارضين تماماً بشأن التغيير المطلوب، من دون أن يكون هناك وسيط مؤسسي للتقريب بينهما فيما اختلفا فيه، وعندما يمكن الوصول إلى نقطة اللاعودة وتصبح الثورة السياسية الراديكالية هي البديل. وهنا يتقدّم المؤلف بأسلوب لاذع المثقفين العرب الذين بقوا أو فيأء لنظريات قرؤوا عنها في الكتب بدلًا من أن ينظروا إلى ما كان يجري تحت أبصارهم، فجزء كبير منهم لم يعتبر ما كان يجري في بلدان "الربيع العربي" ثورة ولم يشارك فيها (ص 4).

هل تشبه الثورة التونسية الثورات التاريخية الكبرى المعروفة؟ الجواب: ليس ذلك ضروريًا كي يمكن اعتبارها ثورة، فحتى إن كانت بعض العناصر مشابهة، فهناك اختلافات في تراكب مكوناتها ومساراتها وдинامياتها بحسب السياق التاريخي وكذلك الوطني والإقليمي والعالمي في كلّ زمن. وبهذه المناسبة، يوجّه المؤلف نقداً إلى من يعتقد، انطلاقاً من تجربة ساحة التحرير بمصر، أن الثورات الجديدة تنشأ وتطور من دون حاجة إلى قادة سياسيين، وأن الشعب هنا قد تحرر من هيمنة

أن في نقض نتائج الانتخابات نقضًا لمسار الانتقال الديمقراطي برمته.

من الناحية المنطقية، أي عند الالتزام بالمنطق الشكلي لشروط ممارسة الديمقراطية، تتفق تماماً مع بشاره فيما يذهب إليه. غير أن مضمون الثورة التونسية الثقافي ومساراتها، والمعلومات بشأنها، وعلاقة القوى الاجتماعية المتصارعة بشأن مخرجاتها تصفي تعقيداً كبيراً على الظاهر، ما يستوجب حذراً أكبر بشأن الموقف من تطوراتها. وإذا ما كان هناك نقلاً للكتاب فإنه سيكون في مجال مكانة الثقافي في دراسته. ففي الحالة التونسية هناك خاصية سوسيولوجية اجتماعية تشكلت عبر التاريخ الحديث للبلاد بفعل عمليات التحديث قبيل وخلال وبعد الاستعمار، مفادها أن النخب القيادية التونسية التي حكمت البلاد منذ الاستقلال حتى عام 2011، وأقسام أخرى واسعة من المجتمع، تتسمi كلها إلى عصر "نزع السحر عن العالم"، ليس كأيديولوجيا تحديثية فحسب بل كتمثل للعالم. فعلى سبيل المثال، خلال السبعين سنة الأخيرة، فقد علماء الدين شرعاتهم في إبداء رأيهم، انطلاقاً من العقيدة، بشأن مسائل تهم سير الحياة السياسية والمدنية العامة. ولم يُعد جامع الزيتونة مرجعية في أي من هذه الأمور (إلا ما تعلق بقضايا تمس شأن الإنسان بوصفه من خلق الله مثل زرع الأعضاء والإجهاض وغيره)، خلافاً لحالة الأزهر أو المراجع الشيعية في العراق. بل أنه انتهى مؤسسةً تعليمية فقهية تقليدية مستقلة، وقد كلّ موارده المالية بفعل حل ومنع الأوقاف في كامل البلاد، وتحول إلى مؤسسة أكاديمية يدرس فيها طالب الفقه والفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس. وبذلك لم يعد هناك علماء دين بالمعنى الكلاسيكي للكلمة، ولم تعد أوسعاً شرائح المجتمع التونسي تتضرر منهم أن يُلدوا برأيهم في

حقلها المعرفي العالمي. وفي الحقيقة أتى بشارة، بناءً على مانشره سابقاً بشأن الثورة التونسية وقضايا عربية أخرى، على تفاصيل كثيرة من هذه الثورة، وبين ما هو محلي وما هو كوني فيها، وتبه إلى الصعوبات المنهجية في التعامل مع هذين المستويين من المشاهدة في مثل هذا النوع من الدراسات. لكن بحثه ينتهي، في رأيي، بشيء من الإحباط أو التشاؤم، فيما يتعلق بالمرحلة التي تمر بها الآن الثورة التونسية، متوجساً خيفة من طابع الشعبوية الذي بدأ يطغى عليها في المدّة الأخيرة بما يهدد مسارها الديمقراطي.

في الواقع أنه المؤلف كتابه قبل أن يَتَّخِذ رئيس الدولة التونسية ما يعرف بإجراءات 25 تموز / يوليو 2021، التي جمد بموجبها عمل البرلمان وحلّ الحكومة ليصبح الوحيد الذي يجمع بين يديه جميع السلطات، معلنًا أن ما قام به كان باسم الإرادة الشعبية<sup>(6)</sup>. لكن تحليل بشارة أفضى به إلى توجّس من المستقبل ينبع مما رأى فيه عودة للاستقطاب الأيديولوجي الحاد بين الحداثيين والتيار الإسلامي السياسي بمختلف روافده، في سياق تميز بضعف أداء الأحزاب وبهشاشة النخب السياسية المؤمنة فكراً ومارسة بالديمقراطية. وفي نظره لا يمكن الانتقال الديمقراطي أن يَرْسُخ في الأذهان والمؤسسات ما دام أن نتائج صندوق الاقتراع لم تُحترم، بوصفها ممارسة عملية لـ"قانون اللعبة" الجديد الذي تم الاتفاق عليه بوسيلة الدستور. ومن ثم يتخوف المؤلف، اعتماداً على تجارب تاريخية كثيرة، من انقلاب على الديمقراطية أو من سقوط الثورة التونسية في الشعبوية السياسية، وهو مسار يمكن أن يؤدي، في رأيه، إلى عودة نظام الاستبداد السياسي الذي جاءت الثورة لتضع حدّاً له؛ إذ

(6) قبيل نشر الكتاب طلب المؤلف -كما يذكر ذلك- من دار النشر أن يضيف بعض الصفحات في آخر الكتاب خصصها لهذه المسألة.

مؤتمره العاشر سنة 2016 تجاوز هذه العقدة<sup>(8)</sup>. ماذا كانت تَبعـات ذلك على مسار التحول الديمـقراطي؟ أصبح فوز الإسلاميين في الـانتخابـات التشريعـية في تونـس يُهدـدـ، بالنسبة إلى شرائـح واسـعة من التونسيـين، باستـعادـة العالم لـراءـ الفكر الغـيبيـ، وما يـمكـنـ أن يـترـبـ عليهـ من عـودـةـ لـرمـوزـ هـذاـ العـالـمـ وـعـلومـهـ الشـرعـيـةـ"ـ (ـالـتيـ يـشـكـكـ العـلـمـانـيـونـ فـيـ أـسـسـهـاـ)ـ وـمـؤـسـسـاتهـ،ـ للـعملـ فـيـ المـجـالـ العـامـ بـمـنـطـقـةـ العـقـيـدةـ الـتـيـ تـسـعـيـ لـتـحـوـيلـ المـجـتمـعـ إـلـىـ مـرـآـةـ لـهـاـ.ـ وهذاـ لاـ يـزالـ يـعـنيـ بـالـنـسـبـةـ إـلـيـهـمـ العـودـةـ مـنـ بـابـ آخرـ لـلـاستـبدـادـ،ـ وـهـذـهـ المـرـةـ لـيـسـ باـسـمـ الـعـلـمـانـيـةـ بلـ باـسـمـ الـدـيـنـ،ـ خـاصـةـ بـعـدـ أـنـ بـدـأـتـ بـعـضـ قـوـاعـدـ الـإـسـلامـيـنـ وـأـحـلـافـهـمـ مـنـ الأـحـزـابـ الـمـتـرـفـةـ،ـ تـدـعـوـ إـلـىـ تـطـيـقـ الشـرـعـ فـيـ مـجـالـاتـ مـثـلـ صـومـ رـمـضـانـ وـعـرـضـ أـشـرـطـةـ سـيـنـمـائـيـةـ أوـ إـقـامـةـ مـعـارـضـ فـنـونـ تـشـكـيلـيـةـ،ـ كـانـتـ تـرـاهـاـ غـيرـ مـنـاسـبـةـ مـنـ مـنـظـورـهاـ الـدـينـيـ،ـ وـطـالـبـ حـزـبـ النـهـضـةـ فـيـ موـازـةـ لـذـلـكـ بـإـعـادـةـ تـأـسـيسـ الـأـوـقـافـ مـنـ مـنـظـورـ دـينـيـ.ـ وـقـدـ زـادـ مـنـ تـخـوـفـ أـقـاسـمـ وـاسـعـةـ مـنـ النـاشـطـينـ فـيـ الـمـجـتمـعـ الـمـدـنـيـ (ـالـنقـابـاتـ وـالـجـمـعـيـاتـ وـالـأـحـزـابـ الـعـلـمـانـيـةـ)ـ الـخـطـابـ المـزـدـوجـ لـقـيـادـاتـ الـتـيـارـاتـ الـإـسـلامـيـةـ بـمـخـتـلـفـ أـطـيـافـهـاـ،ـ التـيـ كـانـتـ تـعـدـ قـوـاعـدـهـاـ،ـ التـيـ جـنـدـتـهـاـ عـلـىـ أـسـاسـ هـوـيـةـ إـيمـانـيـةـ وـلـيـسـ مـوـاطـنـيـةـ،ـ بـأـنـ مـرـحلـةـ التـمـكـينـ السـيـاسـيـ سـابـقـةـ لـمـرـحلـةـ اـسـتـرـجـاعـ الـهـوـيـةـ الـدـينـيـةـ لـلـدـولـةـ وـالـمـجـتمـعـ،ـ ماـ جـعـلـ حـالـةـ الـانتـقالـ الـدـيمـقـراـطـيـ فـيـ أـذـهـانـ هـذـهـ القـوـاعـدـ مـعـرـدـ وـسـيـلـةـ تقـنـيـةـ لـبـلوـغـ الـهـدـفـ الـمـنـشـودـ،ـ حتـىـ وـإـنـ اـضـطـرـ الـقـادـةـ إـلـىـ التـنـازـلـ السـيـاسـيـ فـيـ عـدـةـ مـرـاتـ،ـ تـحـتـ ضـغـطـ الشـارـعـ،ـ عنـ فـكـرـةـ التـشـبـثـ باـسـتـحقـاقـاتـ مـاـ أـفـرـزـهـ صـنـدـوقـ الـاقـتـارـ.ـ

(8) يـنـظـرـ بـحـثـناـ:

Mouldi Lahmar, "Islamists and Politics in Tunisia Today: Is the Foundation of a Democratic Islamic Party Possible?" in: Eid Mohamed & Dalia Fahmy (eds.), *Arab Spring: Modernity, Identity and Change* (Cham: Palgrave Macmillan, 2020), pp. 39–53.

قضـاياـ عـامـةـ<sup>(7)</sup>ـ.ـ لـاـ يـعـنيـ ذـلـكـ أـنـ التـونـسيـنـ توـقـفـواـ عـنـ مـارـاسـةـ عـقـيـدـتـهـمـ وـأـدـاءـ شـعـائـرـهـمـ الـدـينـيـةـ،ـ أـنـهـمـ لـاـ يـلـجـؤـونـ فـيـ قضـاياـ حـمـيـمةـ إـلـىـ الزـواـياـ الـطـرـقـيـةـ وـالـمـشـعـوذـينـ،ـ أـوـ إـلـىـ الـمـفـتـيـ،ـ فـرـادـيـ،ـ لـأـخـذـ رـأـيـهـ فـيـ قضـاياـ دـينـيـةـ خـاصـةـ،ـ إـنـمـاـ يـعـنيـ ذـلـكـ أـنـ أـقـسـامـ وـاسـعـةـ مـنـهـمـ لـمـ تـعـدـ تـرـىـ لـلـعـلـومـ الـدـينـيـةـ فـائـدـةـ فـيـ إـدـارـةـ الشـأنـ الـعـامـ أـوـ أـنـ تـكـونـ مـرـجـعـيـةـ فـيـ ذـلـكـ.

ماـ عـلـاقـةـ هـذـهـ الـخـاصـيـةـ بـالـتـحـولـ الـدـيمـقـراـطـيـ؟ـ هـنـاـ تـكـمـنـ الـمـشـكـلةـ،ـ وـهـيـ فـيـ الـحـقـيقـةـ لـيـسـ خـاصـةـ بـتـونـسـ.ـ ذـلـكـ أـنـهـ فـيـ حـينـ تـخلـّـتـ التـيـارـاتـ الـيـسـارـيـةـ فـيـ تـونـسـ عـنـ نـمـوذـجـ المـجـتمـعـ الـاشـتـراـكيــ بـالـمـعـنىـ الـكـلاـسـيـكـيـ لـلـمـفـهـومــ الـمـؤـدـيـ لـلـمـجـتمـعـ الـشـيـوعـيـ،ـ وـفـكـكـتـ الـثـورـةـ الـعـلـاقـةـ الـتـيـ كـانـ يـقـيمـهـاـ الـاستـبدـادـ بـيـنـ مـارـاسـةـ الـمـؤـمـنـيـنـ لـعـقـيـدـتـهـمـ وـتـهـدـيدـ نـظـامـ الـحـكـمـ السـائـدـ،ـ بـمـاـ تـرـبـ عـلـىـ ذـلـكـ مـنـ فـصـلـ بـيـنـ حـرـيـةـ الـضـمـيرـ وـالـسـيـاسـةـ،ـ جاءـ التـيـارـ السـيـاسـيـ الـإـسـلامـيـ بـمـعـجمـهـ بـمـشـروـعـ إـعادـةـ "ـأـسـلـمـةـ الـمـجـتمـعـ وـالـدـولـةـ"ـ شـرـطاـ لـاستـرـجـاعـ الـهـوـيـةـ الـحـضـارـيـةـ وـالـتـحرـرـ مـنـ الـهـيـمـنـةـ الـشـفـاقـيـةـ،ـ وـهـوـ أـمـرـ مـخـلـفـ تـمـاـمـاـ عـنـ فـكـرـةـ هـابـرـمـاسـ الـتـيـ حـاـوـلـواـ اـسـتـنـادـ إـلـيـهـ بـشـأنـ حـضـورـ الـدـينـ فـيـ مـجـالـ الـحـيـةـ الـمـدـنـيـ.ـ وـهـذـاـ الـمـشـروـعـ لـيـسـ خـاصـاـ بـالـتـيـارـاتـ الـدـينـيـةـ الـمـتـشـدـدـةـ فـحـسـبـ،ـ بـلـ أـيـضاـ بـحـزـبـ الـنـهـضـةـ الـإـسـلامـيـ الـذـيـ لـمـ يـسـتـطـعـ فـيـ

(7) عندما استدعى الحبيب بورقيبة سنة 1956 فقهاء جامـعـ الـزـيـتونـةـ "ـالـمـتـنـورـينـ"ـ لـإـبـدـاءـ آرـائـهـمـ فـيـ مـشـرـوـعـ "ـمـجـلـةـ الـأـحـوالـ الـشـخـصـيـةـ"ـ،ـ كـانـتـ وـضـعـيـتـهـمـ اـسـتـشـارـيـةـ وـلـمـ يـكـونـواـ يـمـثـلـونـ مـؤـسـسـةـ مـسـتـقـلـةـ يـمـكـنـ أـنـ تـرـفـضـ رـأـيـاـ دـينـيـاـ مـحـدـداـ.ـ أـمـاـ بـعـدـ الـثـورـةـ فقدـ حـاـوـلـ أـسـاتـذـةـ مـنـ كـلـيـةـ الـشـرـعـةـ الـإـنـتـصـابـ كـهـيـنـةـ عـلـومـ شـرـعـيـةـ تـفـتـيـ فيـ قضـاياـ سـيـاسـيـةـ عـامـةـ،ـ وـمـنـهـاـ مـحاـوـلـةـ الـإـفـتـاءـ بـعـدـ التـصـوـيـتـ لـصـالـحـ كـلـ مـتـرـشـحـ يـدـعـوـ إـلـىـ الـمـساـواـةـ بـيـنـ النـسـاءـ وـالـرـجـالـ فـيـ الـمـيرـاثـ.ـ لـكـنـهـاـ لـمـ تـجـدـ فـيـ ذـلـكـ الـوقـتـ أـيـ أـسـاسـ مـؤـسـسـاتـيـ تـقـفـ عـلـيـهـ،ـ وـجـوبـهـتـ بـالـسـخـرـيـةـ مـنـ أـوـسـاطـ كـثـيـرـةـ الـنـاشـطـينـ الـحـدـاثـيـنـ فـيـ الـمـجـتمـعـ الـمـدـنـيـ.ـ يـنـظـرـ:ـ "ـالـتـصـوـيـتـ لـهـمـ حـرـامـ"ـ..ـ مـشـاـيخـ بـتـونـسـ يـصـعـدـونـ ضـدـ دـاعـمـيـ الـمـساـواـةـ بـالـمـيرـاثـ،ـ الـجـزـيرـةـ نـتـ،ـ 19/12/2018،ـ شـوـهـدـ فـيـ 4/5/2022ـ (ـيـنـظـرـ الـدـقـيـقـةـ الـثـالـثـيـنـ)ـ <https://bit.ly/3LDBCQ0>

## خاتمة: كتاب لا يريد أن ينتهي

لم يؤلف بشاره كتابه ليجيب عن كل أسئلة الثورة التونسية المطروحة والتي تنتظر أن تُطرح، وهو يدرك تماماً أن الثورة مسار طويل من الإصلاحات والصراعات والتحولات. والقارئ لكتابه يشعر أن المؤلف يكاد لا يقدر على إنتهاء كتابه بسبب زخم القضايا التي يُشيرها، وبسبب رغبته في محاولة تثبيت عالم نظرية ومنهجية للحقل المعرفي الذي ينبغي أن يجري تأصيلها فيه. فقد وضع المؤلف لكتابه مقدمة وتمهيداً وخلاصةً وتذيلًا في مقام خاتمة، وتذيلًا بعد التذليل في محاولة للحاق بتطور الأحداث. ومع ذلك ظلت العديد من القضايا تُورقه وتحتاج إلى مزيد النظر والتحقيق كما يقول ابن خلدون، ومن هذا المنظور يقدم الكتاب للقارئ مفاتيح نقدية غالية في الأهمية للتفكير في ظاهرة الربيع العربي، وهو يُمثل في رأيي لبنة مهمة جدًا في التأسيس لجامعة علمية عربية تفكّر بتفاعل أفقى وعمودي في ما يجري في مجتمعاتها وفيها.

إن الدستور التونسي الحالي لا يعكس تطوراً في تفكير المسلمين بشأن هذه القضية الشائكة، التي هي كما نعرف في قلب إشكالية علاقة الثورة بالحرية عند حنا أرندت، بل كان يعكس موازين القوى في فترة حرجة من المسار المتعرج والمتعثر للثورة التونسية. وفي رأيي لن ينبعج التونسيون في الإرساء النهائي للديمقراطية في بلادهم إذا لم تُحل قضية فصل الدين عن السياسة (وليس إقصاء الدين من الحياة العامة)، ويمكن أن نفهم التصلع الداخلي الذي يعرفه اليوم حزب النهضة على أنه نابعٌ من مشكلة غياب الديمقراطية داخله - وهو بذلك لا يختلف عن الأحزاب الأخرى التي تعاني المشكلة نفسها - ومن تعامله الأدائي مع العقيدة، ما جعله يتعرّض في الفصل بين مفهومي مجتمع المواطنين ومجتمع المؤمنين، وبيناقض في سلوكه السياسي بل يتعرّض أكثر في تحالفاته المخالفة أخلاقياً لمرجعياته الدينية.

## References

## المراجع

### العربية

الأحمر، مولدي [وآخرون]. *الثورة التونسية: القادح المحلي تحت مجهر العلوم الإنسانية*. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014.

بشاره، عزمي. *الثورة التونسية المجيدة: بنية ثورة وصيروتها من خلال يومياتها*. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012.

### الأجنبية

Brinton, Crane. *The Anatomy of Revolution*. New York: Vintage, 1965.

De Tocqueville, Alexis. *The Ancient Regime and the Revolution*. Jon Elster (ed.). Arthur Goldhammer (trans.). Cambridge/ New York: Cambridge University Press, 2011.

Mohamed, Eid & Dalia Fahmy (eds.). *Arab Spring: Modernity, Identity and Change*. Cham: Palgrave Macmillan, 2020.